المركز العام
لجمعيات الشبان المسلمين

قضية فلسطين

« البحث الذى أعده صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ أحمد الشرباصى من علماء الأزهر والرائد الدينى لجمعيات الشبان المسلمين مشتركا به فى المؤتمر الاسلامى المنعقد بمدينة القدس يوم ٢٧ ربيع الأول سنة ١٣٧٣هـ (٣ ديسمبر سنة ١٩٥٣م) بصفته مندوب المركز العام لجمعيات الشبان المسلمين فى ذلك المؤتمر الخاص بمسألة فلسطين » .

قضية فلسطين

« البحث الذى أعده صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ احمد الشرباصى من علماء الأزهر والرائد الدينى لجمعيات الشبان المسلمين مشتركا به فى المؤتمر الاسلامى المنعقد بمدينة القدس يوم ٣ ديسمبر سنة ١٩٥٣ م بصفته مندوب المركز العام لجمعات الشبان المسلمين فى ذلك المؤتمر الخاص بمسأله فلسطين ».

بسم الله الرحمن الرحيم

أحمد الله تبارك وتعالى ، وأصلى وأسلم على أنبيائه ورسله ، وعلى امامهم وخاتمهم محمد بن عبدالله ، وعلى آله وأصحابه ومن دعا بدعوة كتابه الى يوم الدين .

تحية المؤتمر

أيها الاخوة الفضلاء :

أحمداليكم الله الذىلااله الاهو ، وأسأله لىولكم الصواب فىالرأى، والسدادفى القول، والرشد فى العمل ، انه أكرممسئول وأفضل مأمول وأحمل اليكم مناخوانكم فىوادى النيل عامة ، وفى المركزالعاملجمعيات الشبان المسلمين خاصةتحية الاسلام والسلام ، وشعار الايمان والأمان تحية من عند الله مباركة طيبة ، فسلام الله عليكم ورحمته وبركاته .

قضية فلسطين عامة

تجتمعون الآن أيها الاخوان فى مؤتمركم هذا لبحث قضية فلسطين بصفة عامة ، والقدسوالمسجد الأقصىوالأماكن المقدسةبصورة خاصة، وليس هذا المؤتمرهو الأول من نوعه ، فقدسبقته مؤتمرات هنا وهناك وكان أغلبهذه المؤتمراتالاسلاميةالعامة يدور حول القضيةالفلسطينية وبعضها يدورحول غيرها من شئون الاسلام والعروبة ، وان مصر التى نعتز بالانتساب اليها وهى قطر من أقطار الأمة العربية المؤمنة ليسرها دائما أن تسهم بما تستطيع فى قضية فلسطين ، لأنها كبد العروبة ، ومق

المسجد الأقصى ، ولأن مصر وفلسطين عاشتا معا خلال أجيال تاريخنا الاسلامى المجيد ثمانمائة سنة ، وذلك أثناء الدول الطولونية والاخشيدية والفاطمية والأيوبية والتركية ، فمصر حين يهمها أمر فلسطين تؤدى واجباعليها نحو قطعةغالية من صميم الوطن العربى المسلم الذى لايتركنا ولو هممنا بتركه ..

وان المركز العام لجمعيات الشبان المسلمين ليرى من واجبه الأساسى أن يعطى هذه القضية اليوم عنايته ورعايته ، كما أعطاها عنايته ورعايته من قبل ، فلو أردنا احصاء المواقف والجهود والمؤتمرات التى شارك فيها المركز العام للشبان المسلمين من أجل فلسطين لاحتجنا الى كتاب ، ولامتد حبل الخطاب ، ولخيف علينا التمدح بقول أو عمل ، وحسبنا أن نشير الى اشتراك الشبان المسلمين فى مؤتمر القدس الذى عقد هنا فى رجب سنة ١٣٥٠ هـ — أى منذ قرابة ربع قرن — لبحث المسألة الفلسطينية ، وكان مركزهم العام قبيل انعقاد هذا المؤتمر قد اتخذ فى سنة (١٣٤٩ هـ) هذا القرار :

« نعلن تمسك المسلمين العام بمكان البراق الشريف الذى هو حق مقدس لهم ، لاينازعهم فيه الا ظالم أو معتد ، وأن كل مساس بذلك الحق الذى لا شبهة فيه يترك فى نفس كل مسلم جرحا عميقا ، ويذهب بكل ثقة له بالعدالة التى تنادى بها (جمعية الأمم) والتى ينبغى أن تكون بعيدة عن مثار العواطف السياسية والأطماع » .

والذى يجب أن نتذكره وأن نتذاكره وأن نردده دائما أن قضية فلسطين ليست قضية قطر من أقطار الأمة العربية ، ولكنها قضية العرب كلهم وقضية العروبة بأكملها ... لأن مطامع الصهيونية ومطامحها كما يعرف الكثيرون لاتقف عندما أخذت من فلسطين ، ولا تنتهى عند حدود فلسطين ، ولكنها تتسع وتفحش فى اتساعها ، وتمتد وتفجر فى امتدادها الى أكثر من ذلك وأكبر ؛ فهى تريد — كما تعلمون أو كما تسمعون —

أن تستعيد ملك سليمان ، وانه فى فهمهم أو وهمهم لواسع فسيح .

وإذا أفطرت الصهيونية اليوم بفلسطين الشهيدة المجيدة ، فانها ستتغدى بعد حين بغيرها ، ثم تتعشى بالبقية الباقية من جسم العروبة المؤمنة ، وبعدها يكون الليل الأليل والظلام الدامس الذى نخبط فيه خبط العشواء ، ولا نعرف معه طريقا للخلاص أو الاهتداء ، ونكون قد جوزينا على اهمالنا وكبائرنا أبلغ الجزاء ، ويومها نردد بلا فائدة للندم أو عائدة من الحسرة : لقد أكلنا يوم أكل الثور الأبيض ...

وكأن طبقات الثلوج الناصعة التى تجلل هامات فلسطين ومقدساتها هى جلد الثور الأبيض الذبيح ، وأخشى أن يتم سلخ هذا الجلد عن لحمه وعظمه قبل أن نستفيق ونعى ما يردده النذير العريان .

الهجوم على سياسة المؤتمرات

وهناك هجوم عنيف على سياسة «المؤتمرات» الكلامية التى عقدت وتعقد ، لأن أخبث مابلينا به هو تشقيق الأقوال مع العجز عن الأعمال وكأن هذه الصور الكلامية البيانية شريط موصول لاينقطع ، أو قصة دائرة لاتنتهى ، والعلة فى هذه البلية أن الشعوب تتكلم ولا تقدر على غير الكلام فى مثل هذا المقام ، وأن الحكومات المفروض فيها أنها صاحبة العمل المقلة من القول تتكلم أيضا ولا تعمل ، بينما كان الواجب أن تعمل هذه الحكومات دائما ولا تتكلم الا نزرا ، وتترك الكلام لرجال البيان ، فان الله يزع بالسلطان مالا يزع بالقرآن ، ولا بد للحق المقول من قوة تؤيده وتسنده ، واذا كان يقال : الحق فوق القوة ، فيجب أن نفهم هذا على أن الحق يجب أن يكون محروسا ومحمولا فوق القوة وفوق الأيدى القوية الحارسة ...

وعلى الرغم مما فى الهجوم على سياسة المؤتمرات من حق وصدق ومن تعبير عن غيظ دفين وحزن مكين ، فان هذه المؤتمرات — وهى جهد المقل — لاتخلو من فوائد وثمرات ، ففيها تذكير وتبصير ، وفيها

تفكير وتعبير ، وفيها تصوير للتدبير ، وفيها اعادة وتكرار لكلمات الخير وأصوات الحق ، والاعادة قد تنبه الغافلين ، والتكرار قد يخجل المهملين ، ولأمر ما وحكمة دقيقة جاء التكرار فى القرآن ، ولعل مواصلة الطرقات على أبواب النائمين عن واجباتهم تقلق المضاجع وتثير المهاجع .

ولو لم يكن فى هذه المؤتمرات سوى التدارس والتباحث بين الذين تهمهم شئون الاسلام والعروبة ، وسوى الالتقاء للتعارف والتآخى وتحقيق روح الجماعة التى أشاد بها رسول الاسلام حين قال — فيما يرويه أحمد — : « الجماعة رحمة والفرقة عذاب » وحين قال — فيما يرويه الطبرانى — : « يد الله مع الجماعة ، والشيطان مع من فارق الجماعة يركض » ...

لو لم يكن فى هذه المؤتمرات سوى هذا لكان مسوغا لها نادبا اليها ، وليس ذلك منا ارتضاء لما ألفناه من البحوث النظرية والمحاورات اللفظية فى كثير من هذه المؤتمرات ، فقد شكونا ولانزال نشكو من ذلك الداء الوبيل ، وقد طالبنا ولا نزال نطالب بأن نجعل لمؤتمراتنا نتائج عملية وقيما وجودية ، ولقد وقفت بالأمس فى دار الشبان بالقاهرة بين دعاة هذا المؤتمر وجمع من المدعوين اليه أقول فيما أقول : يجب علينا حين تتلاقى هذه المرة فى رحاب القدس أن نقلل ما أمكننا من الخطابيات والنظريات والسبحات الفكرية ، وأن نحاول ايجاد طرق عملية ممكنة ، نرتبط بها ونسعى لتحقيقها ، وأن نستفيد من عثرات الماضى ومن أخطائنا بالأمس ، وأن لانكرر تناول الأوضاع بلا فائدة جديدة ، حتى لايكون عملنا عبثا يجب أن يتنزه عنه العقلاء ...

مكانة القدس

وأنتم تعقدون مؤتمركم فى مدينة «القدس» أو مدينة «بيت المقدس» وتجعلون مسألة القدس طليعة المسائل التى تهتمون لها وتعنون بها ، ومن واجبنا أن نتذكر مكانة القدس فى قلوبنا وعقائدنا وتاريخنا وحاضرنا ،

واذا كانت المعرفة عند بعض القدماء هى الفضيلة، فما اعتبر ذلك الا لايمانه بأن المعرفة اذا كانت سليمة قويمة ، وكانت دقيقة عميقة ، وكانت مسيطرة مبصرة فانها تستحوذ على قوى الانسان المعنوية والحسية ، وتسخرها لخدمتها ومقتضياتها، ومتى عرف الانسان الخير هذه المعرفة فقد استمسك به . ومتى عرف المهضوم المظلوم حقه هـذه المعرفة فقد حرص عليه وجاهد من أجله ...

القدس هى حاضرة فلسطين[1] ، وفلسطين هى مسرى الرسول الأمين عليه الصلاة والتسليم ، وهى نهاية رحلته فى الأرض ليلة الاسراء ، وبداية رحلته الى السماء حين المعراج ، وهى القطر الذى يعزه المسلمون والعرب أيما اعزاز ، ففيه درج عيسى ، واليه هاجر موسى ، واليه أسرى بمحمد ... صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ... وهى الثغر الذى أريد له منذ فتح باسم الاسلام الى اليوم أن يكون ثغرة فى ديار المؤمنين ينفذ منها خبث الفاسقين ، ليستقر ثم يفشو بين عصب الايمان واليقين، فيهدم ما يهدم من كيان المسلمين ...

وحسبنا أيها الاخوة الفضلاء أن تختار الأقدار لهذه المدينة اسما يجعلها مصطبغة بصبغة الطهارة الاسلامية والتصفية الايمانية ، فالقدس كما تقول لغتنا تنزيه الله تعالى ، والمادة كلها تدل على الطهارة والنقاء.

ألم تقرأ فى تنزيل ربنا المجيد هذه الآيات :

« ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك » — البقرة ٣٠

«وآتينا عيسى بن مريم البينات وأيدناه بروح القدس» — البقرة ٨٧

«هو الله الذى لااله الا هو الملك القدوس» — الحشر ٢٣

«انى أنا ربك فاخلع نعليك انك بالواد المقدس طوى» — طه ١٢

«ياقوم ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم» المائدة ٢١

---

(١) روى أنها سميت فلسطين باسم أحد الأحفاد لنوح أبى الأنبياء عليه وعليهم الصلاة والسلام .

جاء فى كتاب (مفردات القرآن) للراغب الأصفهانى :

«التقديس التطهير الالهى المذكور فى قوله : «ويطهركم تطهيرا» دون التطهير الذى هو ازالة النجاسة المحسوسة ، وقوله : «ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك» أى نطهر الأشياء ارتساما لك ، وقيل نقدسك أى نصفك بالتقديس ، وقوله «قل نزله روح القدس» يعنى به جبريل ، من حيث أنه ينزل بالقدس من الله ، أى بما يطهر به نفوسنا من القرآن والحكمة والفيض الالهى ، والبيت المقدس هو المطهر من النجاسة أى الشرك ، وكذلك الأرض المقدسة ، قال الله تعالى : « ياقوم ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم» . وحظيرة القدس : قيل الجنة وقيل الشريعة ، وكلاهما صحيح، فالشريعة حظيرة منها يستفاد القدس، أى الطهارة » .

وجاء فى كتاب (النهاية فى غريب الحديث) لابن الأثير ما أورده هنا باختصار :

فى أسماء الله تعالى القدوس ، هو الطاهر المنزه عن العيوب ، وقد تكرر ذلك التقديس فى الحديث والمراد به التطهير، ومنه الأرض المقدسة قيل : هى الشام وفلسطين ، وسمى بيت المقدس ، لأنه الموضع الذى يتقدس فيه من الذنوب ، يقال بيت المقدس ، والبيت المقدس ، وبيت القدس بضم الدال وسكونها ، وان روح القدس نفث فى روعى : يعنى جبريل ، لأنه خلق من طهارة ، ومنه الحديث : لاقدست أمة لايؤخذ لضعيفها من قويها ، أى لا طهرت ...

ولقد أفاض ياقوت فى الحديث عن القدس فى معجمه ، وخلاصة ما أورده أن معنى القدس هو تنزيه الله تعالى ، والمقدس المنزه ، قال الله تعالى : « ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك » أى نطهر أنفسنا لك : وكذلك نفعل بمن أطاعك ، نقدسه أى نطهره ، ومن هنا قيل للسطل القدس ، لأنه يتقدس منه أى يتطهر ، ومن هذا بيت المقدس ، أى البيت

المقدس المطهر الذى يتطهر به من الذنوب .

وقال قتادة : المراد بأرض المقدس ، أى المبارك ، ومنه قيل للراهب: مقدس .

وبيت المقدس هى الأرض التى نجى الله اليها لوطا ، قال تعالى : « ونجيناه ولوطا الى الأرض التى باركنا فيها للعالمين » وقيل انه أريد بيت المقدس بقوله تعالى: « وواعدناكم جانب الطور الأيمن» وبقوله : «وجعلنا ابن مريم وأمه آيتين ، وآويناهما الى ربوة ذات قرار ومعين» وبقوله : « فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه » .

والمسجد الأقصى فى بيت المقدس ، والحق يقول : « سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا انه هو السميع البصير » . وقد بناه سليمان بن داود عليهما السلام ، ومنه رفع عيسى عليه السلام .

وعن النبى صلوات الله عليه : « لاتشد الرحال الا الى ثلاثة مساجد مسجدى هذا ،والمسجد الحرام ، ومسجد بيت المقدس ، وان الصلاة فى بيت المقدس خير من ألف صلاة فى غيره » .

وأقرب بقعة فى الأرض من السماء بيت المقدس ، وكلم عيسى الناس فى المهد بها ، وتاب الله على داود بها ، ودفن فيها وحولها كثير من الأنبياء والمرسلين .

وقد زار جميع الأنبياء بيت المقدس ...

وعن ابن عباس : البيت المقدس بنته الأنبياء ، وسكنته الأنبياء ،مافيه موضع شبر الا وقد صلى فيه نبى ، أو قام فيه ملك .

والقدس فى أيدى المسلمين منذ العام السادس عشر أو السابع عشر للهجرة ، من عهد عمر بن الخطاب ،منذ فتحها أبو عبيدة وعمرو بن العاص باسم الله وتحت لواء الاسلام ...

وفى شعبان سنة ٤٩٢ جاء الافرنج الذين ينتسبون زورا الى عيسى

عليه السلام ،وهم الذين نشروا الظلم والظلمات ، واستباحوا الحقوق والحرمات ، فأعملوا السيف فى المسلمين بالقدس أسبوعا ، والتجأ الناس الى المسجد الأقصى ،فقتل الافرنج ما يزيد عن سبعين ألفا من المسلمين وأخذوا نيفا وأربعين قنديلا فضة ، كل واحد وزنه ثلاثة آلاف وستمائة درهم فضة ، وتنور فضة وزنه أربعون رطلا بالشامى ، وأموالا لاتحصى وجعلوا الصخرة والمسجد الأقصى مأوى لخنازيرهم ، ثم استنقذه منهم ملك مصر الناصر صلاح الدين الأيوبى عام ٥٨٣ هـ .

فالقدس اذن أيها الاخوة الفضلاء واسطة العقد فى فلسطين ، وهى مركز الدائرة فى هذا البلد الأمين، وهى لذلك قرة عيون العرب المسلمين وهى البقعة المباركة المقدسة عند أبناء الشرق المؤمن سواء أكانوا محمديين أم عيسويين ، واذا كانت الأخطاء المتلاحقة قد تأدت بنا الى ما نراه من كارثتنا فى فلسطين ، فلا أقل أبدا من أن نحوط القدس بالمهج والأفئدة،لتكون نقطة الارتكاز فى رد فلسطين على أهلها المشردين.

الاعتراف بأخطاء الماضى

من الواجب علينا اذا كنا نريد حقا أن نصبح صالحين ومصلحين أن نعترف بأخطاء الماضى ،وأن نجسم هذه الأخطاء أمام أبصارنا وبصائرنا وحدنا ، وأن يعرف كل منا سواء أكان حاكما أم محكوما ، قائدا أم مقودا — ما أخطأ فيه بالأمس ، وما فرط فيه بالأمس ، وما كان يجب أن يفعله بالأمس ولكنه لم يفعله ...

يجب أن نعرف — فيما بيننا — أخطاءنا لالنثبط بها العزائم ، أو لنتقاذف التهم ، أو لننشرها على الناس يتخذونها سببا للسخرية منا والتندر بنا ، والوقوف على نقائصنا ومواطن الضعف والوهن فينا ، بل لنتذكر ونعتبر ونحذر ، ولنخلص لله التوبة عما جنينا فى الماضى ، ولنصدق فى المعاهدة اليوم على أن نؤدى ما نستطيع ، وأن نبتعد عما وقعنا فيه ..

بينما كان الصهيونيون يعملون دائبين مثابرين لتحقيق حلمهم الواسع،

وهو الوطن القومى الصهيونى مبتدئين فيه بفلسطين ، ومنتهين فيه — كما يحاولون — الى أطراف ملك سليمان هنا وهناك ؛ كان الطرف الآخر — وهو نحن أصحاب الدار وأهل الحق وورثة المجد — نضيع تراثنا بأيدينا ،ونزهق روح حقنا بتفرقنا وتغافلنا وتكالبنا على شهوات السيادة والقيادة ، وملذات العيش ، ومناعم الدنيا ومطامح الحياة ، ومطامع الجاه الكاذب الخلاب ...

يجب أن نعرف أيها الاخوة لماذا ضاعت فلسطين ، حتى نعرف كيف نستردها بمشيئة الله ؛ وانى لأذكر فيما أذكر خطبة ألقيتها على جموع غفيرة فى مسجد المنيرة بالقاهرة يوم الجمعة ٢ ربيع الثانى سنة ١٣٦٩ﻫ الموافق ٢٠ يناير سنة ١٩٥٠ م ، وقدنشرتها مجلة الشرق العربى المصرية فى العدد الحادى والأربعين من السنة الرابعة الصادر بتاريخ الجمعة ٧ جمادى الأولى سنة ١٣٦٩ ﻫ الموافق ٢٤ فبراير سنة ١٩٥٠ م ، وكنا حينئذ فى مصر نلاقى ما نلاقى من الجبروت والطغيان ؛ وكان موضوع الخطبة « لماذا ضاعت فلسطين » ، ومنها أقول :

« لقد ضاعت فلسطين أيها الناس لعدة أسباب ،وكل سبب منها يحتاج الى البحث وامعان النظر ، فمن أسباب ضياع فلسطين أننا تأخرنا فى الدفاع عنها حتى تمكن أبناء صهيون منها ، وثبتوا دعائمهم فيها ، وحصنوا أماكنهم داخلها ، ولقد كانت النذر خلال ما يزيد عن عشر سنوات تقرع أسماعنا منادية : هلموا أيها العرب والمسلمون الى انقاذ فلسطين ، فان شراقريبا أو بعيدا يراد بها ؛ وهى مركز الدائرة فى حياتكم فاذا ضاعت فضياعها فاتحة لضياعكم . ولكن الآذان كانت مغلقة صماء والقلوب كانت قاسية عمياء ، والرعاة كانوا غافلين أو متغافلين ،يربطون أعناقهم ما استطاعوا بعجلات بريطانيا التى ليس للعرب ولا للمسلمين — بل ولا للشرقيين — عدو مثلها فى هذا الوجود ، فهى التى جعلت بمكايدها وأساليبها تمكن أقدام اليهود فى فلسطين ، وتضحك على

ذقون العرب والمسلمين ، وتوقع بين صفوفهم العداوة والبغضاء ، وتفرق بينهم بالدس الوضيع والكيد اللئيم ، وتضرب بعضهم ببعض لتسود عليهم وتضمن ضعفهم بشتاتهم وتفرقهم وتمزق وحدتهم القومية الغلابة .

وقد نجحت بريطانيا فعلا فى سياستها ، ورأينا الصاب والعلقم من ذلك ، فشاهدنا الدول العربية لاتدخل أرض فلسطين لانقاذها ، أو تحريرها لأهليها فى يقين واخلاص ، بل حركت أغلبها الى ذلك شهوات ورغبات وأطماع ، فكل من هذه الأكثرية يرقب صيدا ، وكل يستزيد لنفسه مجدا ، ماديا أو معنويا ...

واستطاع البعض أن يكتم أغراضه أو أمراضه ، وعجز البعض الآخر عن أن يكتم مطامعه .... وكان ذلك الكفران من الروس الكبيرة سببا فى ضعف روح الجهاد ونزعة الاستشهاد فى نفوس الجنود ، وخاصة الصفوف النظامية الرسمية منها ، فكانوا كما يخيل الينا يحاربون وكأنهم ينهضون بمهمة رسمية شاقة ، ثقيلة بغيضة ، لولا خوف العقاب الصارم لولوا الأدبار وآثروا الفرار ، ولم لا وقد كادوا يؤمنون بأنهم لا يحاربون فى معركة الرحمن والقرآن والأوطان ، بل يحاربون فى معركة عمادها أهواء الرءوس ومطامح الانسان ؟.

ومن أسباب ضياع فلسطين أن الجهلة من رعاتنا فى ذلك الوقت كانوا — وهم لا يحسنون شيئا من أمور القتال أو شئون النضال — يتحكمون فى المعركة بالتوجيه والتعديل ،والتأجيل والتحويل ، على خلاف ما تقتضيه الخبرة الميدانية المبنية على التخصص والمشاهدة .

وبينما كانت ساحة الميدان تحتدم بالأسود المتحرقين شوقا الى الجهاد وتعجل النصر أو الاستشهاد ، كان تجار السياسة والمحترفون للحكم والمسيطرون على الناس من مكاتبهم ، يأبون الا أن تدار المعركة بآرائهم وأوامرهم ، فشلوا حماس الجيش المصرى وغيره ، وحطموا قوة المجاهدين

المتطوعين بالهدنة التى قبلوها مرة ومرة ، فكانت بداية البوار وهاوية الخسار ...

وكم تضايق من ذلك التحكم قواد وجنود ، وكم رغب أقطاب الى رجال السياسة والحكم أن يمكنوا القساور فى الميدان من حقوقهم ودوائر اختصاصهم ، فلم يسمع لهم قول ، ولم تنفذ لهم نصيحة .

ولم تقتصر جناية هؤلاء المحترفين للحكم على الجيش النظامى الرسمى بل تعدته الى كتائب المتطوعين المتبرعين بدمائهم للوطن ، ممن بعثتهم الهيئات الاسلامية والجمعيات الدينية والوطنية ، فحرموا هؤلاء المتطوعين المؤمنين المخلصين كثيرا من الميزات والحقوق ، وكانوا يضنون عليهم بما يجب لهم من تأييد وتعضيد وتمجيد ، فاذا ماجد الجد ، وضاقت الحلقات ، واشتدت الأزمات ، فزعوا الى نفس أولئك المتطوعين المخلصين المؤمنين يحتمون بظهورهم ، ويتقون بهم المهالك والمخاطر ، ويدفعون بنجدتهم وحمايتهم وبسالتهم البلاء النازل والرعب المحدق .

وكم من موقف سبق فيه المجاهدون المتطوعون فى فلسطين الى مواطن البأس والخطر ، جياعا الى المجد ، عطاشا الى دماء الأعداء ، منتظرين جزيل الأجر والثواب من رب السماء ، بينما كان غيرهم من المغمورين بالنعيم هنا وهناك — ولا نحدد ولانسمى — يشربون الخمر أو يدخنون الحشيش ، أو يخنعون لشهوة النساء ، أو يتقاسمون الغنائم والأسلاب ، أو يرسمون الخطط لحظوظ اليوم ومطامع المستقبل .

وانا لنقول هذا القول والدم يفور فى الأعضاء ، وما بنا والله من حقد أو ضغينة أو تحيز ، فالكل أبناء الوطن ، وكم نحب لكل فرد منهم الخير الكامل والصلاح الشامل ...

... ومن الأسباب التى أضاعت فلسطين أيضا أن رعاتنا فى ذلك الوقت — كان الله لحسابهم — شغلتهم أحقادهم وأضغانهم الداخلية عن التفرغ الكامل لقضية الوطن الاسلامى الجريح ، وكان من الممكن

ايجاد هذا التفرغ بالاتحاد الصحيح وتناسى الخصومات ، وبالحكمة والرشاد والسداد فى التصرف والتفاهم والانصاف فى الأمور ...

ولكنهم تركوا فلسطين فى محنتها ، تحترق وتسلم بقية روحها ، والتفتوا باغين مسرفين الى الانتقام الظنين والتشفى الأعمى والتنكيل الأثيم والتشريد السافر والحقد الدفين ...

واذا بنا ابان ذلك نصدم أشد صدمة حين نسمع أن فريقا كبيرا من المتطوعين المتبرعين المحتسبين يعتقلون وهم فى الميدان بملابس الجهاد ، ولا علاقة لهم بأحقاد الداخل ، ولا صلة لهم باضطراباته ، واذا بهؤلاء المتطوعين المعتقلين يجازون جزاء سنمار ، وكأن هذا الاعتقال هو ثمن جهادهم وتركهم لأوطانهم وأسرهم ووظائفهم ومستقبلهم ، وتضحيتهم فى سبيل العروبة والاسلام ... ...

... وحينما نقل من بيدهم المقاليد ميدان المعركة من فلسطين الى شوارع البلد وسراديب التعذيب وساحات المعتقلات ومخادع الأسر ومعاهد التعليم وأماكن العبادة ، انتهز أبناء صهيون الفرصة ، فابتلعوا فلسطين الشهيدة لقمة سائغة ، دون أن يجدوا من يذرف عليها دمعة رثاء ... ... »

هذا جانب مما جهرنا به أيها الاخوة منذ أربع سنوات ، والظلم طاغ والبغى مستحكم ، وقد تكون هناك أسباب أكثر مما ذكرنا لضياع فلسطين ، ومن واجبنا أن نتتبع هذه الأسباب لنعالجها ونطب لها ونحذر منها ...

استخفافنا بالصهيونية

ومن أخطائنا الكبرى فى القضية الفلسطينية استخفافنا بالصهيونية فقد ظللنا ردحا من الزمن نكتفى بالتفرج على ماتفعله الصهيونية وما تدبره من مكايد وتديره من مؤامرات ، ونقتصر على التلهى بترديد كلمات الاستخفاف والتندر .

وكنا على سبيل المثال نعبر عن الدولة الدخيلة فى فلسطين بقولنا «اسرائيل المزعومة» وأصررنا على هذه التسمية دون أن نبذل شيئا للابقاء على اسرائيل زعما من المزاعم ، حتى صارت اسرائيل على الرغم منا دولة مفروضة محتومة ، وصارت تسميتنا نحن زعمة من الزعمات ...

وكنا ـ ولا زلنا ـ نسمى الصهيونيين فضلات الأمم وحثالة الشعوب وشذاذ الآفاق ، واستطبنا التنفيس عن غيظنا ونقصنا بهذه الكلمات الصادقة فى مدلولها ، ولكن قائليها لم يستجيبوا لتأثيرها ولم يعملوا بمقتضاها ، فأصبحت الصهيونية أخطر شوكة فى جنوبنا .

وكنا نظن أن حفنات من رجالنا سيقذفون بالصهيونية الى البحر ، ولكن الأسباب المختلفة المتصلة بتفريطنا وأخطائنا وأهوائنا جعلت سبعة جيوش عربية طويلة عريضة تعجز عن ذلك ...

وسبب هذا كله هو استخفافنا بأعدائنا ، واكتفاؤنا بالحملات اللسانية والبيانية عليهم ، وعدم مقابلتهم بما يماثل جهودهم ودأبهم وصمتهم وكتمانهم وتسديد رمياتهم وانتهاز كل فرصة ملائمة لهم ...

وبينما كان أعداؤنا ـ ولا يزالون ـ يجيدون اعداد السلاح والكتائب نبرع نحن ونتخصص فى اعداد الاحتجاجات والقذف بالخطب ، حتى سمعت عربيا مفضالا يقول : ان الصهيونية تنتهز كل فرصة من فرص الاجتماعات الكلامية العامة أو الخاصة التى يعقدها العرب من حين لحين ، تنتهز كل مناسبة من هذه المناسبات لتسدد سهما حسيا ملموسا الى كبد العروبة والاسلام ، بالاعتداء على قرية ، أو الهجوم على قافلة ، أو الاستبداد بثروة ، أو غير ذلك من ألوان الاكتساب العملى الجرىء .

وكأن الصهيونية تريد بذلك أن تقول للعرب : ها أنتم أولاء قد تخصصتم فى الكلام والبيان ، وهانحن أولاء قد انصرفنا الى التنفيذ بقوة السنان ، فان كان لكم كيد فكيدون ، وان استطعتم تغييرا أو تبديلا

فأنتم وما تريدون ... أفلم يأن لأبناء العروبة المؤمنة أن يهتدوا فى ذلك الى سواء الصراط ؟...

دراسة الصهيونية

ونحن نتكلم عن الصهيونية كثيرا ، ونشير الى مؤامراتها ودسائسها ، وأخطارها وأضرارها ، ولكن هذه الاشارات الكثيرة اشارات غامضة مبهمة ، لاتستند الى الدرس الشامل المستبصر ، وأعتقد أنه من أهم الوسائل لخدمة القضية الفلسطينية دراسة الفكرة الصهيونية دراسة واسعة مفصلة ، بطريقة علمية منظمة ، فاننا لا نستطيع حتى الآن أيها الزملاء أن نقول اننا درسناها أو عرفناها .

ان جل ما ينشر أو يقال عن الصهيونية بيننا هو تهويل غامض لمطامع الصهيونية ، أو تصوير عنيف للحنق عليها ، أو تندر ساخر منها ، أو استنكار متحمس ضدها ...

أما ماهى الصهيونية ، وماهى أهدافها المفصلة ، وماهى الوسائل العامة والفرعية التى تتبعها ، وكيف تتأتى الى حاجاتها ، وكيف تتصرف فى أمورها الداخلية والخارجية ، فلا يزال ذلك كله مجهولا للكثيرين منا ، وقد يفهمه القليل ويفقهه ، وقد يلم به كثيرنا الماما سريعا ، ولكن الأغلبية منا لا تعرف ذلك بتفصيل ، وبخاصة الشباب الذين نعدهم ليكونوا أبطال الثأر فى فلسطين وجنود المعركة القادمة بيننا وبين الصهيونيين ، وانه لمن اللازم أن ندرس مبادىء الصهيونية وأسلحتها واستعداداتها وامكانياتها ، وما فعلته وما تفعله وما ستفعله ، وكيف تنجح بباطلها فى دنيانا بينما نخسر نحن بحقنا فى دنيانا وفى دنيا الناس .

أليس من خطل الرأى أن تقدم على منازلة عدو وأنت غير عليم بخططه أو أحواله ؟...

أليس من ضلال الفكرة أن ترى عدوك يعمل الكثير فى الزمن القليل وأنت لاتعمل الجليل ولا القليل فى الزمن الطويل ؟ ...

ألم يصنع الصهيونيون أسلحة ؟ ألم يقيموا حصونا ومعاقل ؟ ألم يكونوا الفرق والكتائب ؟ ألم يغمروا العالم بصناعاتهم وتجاراتهم ؟ ألم يثبتوا أقدامهم فى أسواق المال والاقتصاد ؟ ألم يعمروا الخراب ويحيلوا الصحراء الى حياة تزدحم بالأحياء ؟ ...

فماذا صنعنا نحن حيال ذلك الطوفان ، وأمام ذلك البنيان ؟ ...

لقد قال أحد زعماء الصهيونية منذ سنوات عنا :

« البلاد العربية فقيرة ، وعدد سكانها قليل ، ولا صناعة فيها ، وزراعتها متأخرة جدا ، ومواردها غير مستغلة ؛ فاستقلالها السياسى — اذن — لاقيمة له ولا معنى ، لأنه لاتطور ولا نماء فيها ، والاستقلال الحقيقى هو استمرار النماء والبناء والتطور » .

وقد نسارع برد ذلك القول على صاحبه الظنين ، متحدثين عن أمجادنا وتاريخنا ، متحمسين لقوميتنا ووطنيتنا ، دون أن نكون عمليين فى ردنا فنثبت عن طريق التقدم فى الزراعة والصناعة والاقتصاد والدفاع أنه كاذب فيما قال ..

قد تكون الحالة الاقتصادية والصناعية والزراعية فى كثير من البلاد العربية اليوم أحسن منها بالأمس القريب أو البعيد ، ولكننا اذا قارنا ما فعلناه ونحن دول عديدة تمثل أمة كبيرة عريقة بما فعلته هذه الشرذمة فى أمد قليل تبين لنا أن ذلك التبجح فى القول منهم يستند الى دليل ...

نحن وحسن الظن

لقد أحسن باحث فاضل[1] من رجالنا الظن بنا ، فقال عنا متحمسا منذ سنوات يخاطب أبناء صهيون :

« لقد أخذنا عنكم أن المنهج هو القوة الوحيدة النهائية الفاصلة التى لا تحد ، والتى لا يمكن أن يثبت أمامها شىء فى الوجود ، أو تعترضها

(١) الأستاذ أحمد رمزى ، وقد أفادتنا نظراته .

معضلة من غير أن تجد لها حلا ؛ لقد أخذتم عن الغرب روحه وعقله ، وأتيتم الينا تطبقون هذا على أراضينا ، أما نحن فقد بدأنا نفكر علميا ومنطقيا ، لندفع بالفكر العربى حتى يتعرف نفسه فى كل شىء ، وليبسط نفوذه ومضاءه وقوته .

انكم دفعتم العرب الى الثورة مرات قبل اليوم ، وكنتم تنظرون اليهم نظرة المتفرج ، أما اليوم فستكون الثورة الكبرى فى هدوء ونظام ، تسير على برامج وتضبط فى المعامل ، وتقرن بالأرقام ...

ستكون ثورتنا وليدة المصائب التى حلت بنا ، وخاضعة للعقل الذى قيد كل ما فرطنا فيه ، فوضع الخطط لسنوات قادمة ولأجيال مقبلة .

ولذلك سنجعل لكل يوم عراكا يناسبه ، ولكل شهر كفاحا يتفق مع مراميه ، ولكل سنة حربا تتطلبها تلك السنة .

لقد جربتم حظكم معنا فى وقت لم نكن نفهم فيه أو ندرك شئون عالم يتطور ، أما اليوم فاسمعوا واكتبوا ما أقول :

اننا سنتبع التفكير بالمنهج ، والمنهج بالحركة ، وسنعرف كيف نسيطر على الظروف ... لا ، بل كيف نستبق الزمن ونلين الطبيعة ونتعرف قوانينها وعلاقاتها بالأشياء ، لأننا سنلاقيكم اليوم وغدا وبعد غد ، وسترون أننا فى كل مرحلة سيكون التلاقى على صعيد أنسب لنا ، وأقرب الى جعل النصر تحت متناول يدنا ، وتلك سنة جديدة لنا لم تعهدوها فى الماضى عنا » .

قال الباحث ذلك منذ سنوات ، وكان عنصر الايحاء والتوجيه فى قوله ظاهرا ، وكان حسن الظن عنده متوافرا ، ولكن لعل الكاتب نادم الآن على توسعه فى حسن ظنه ، اذ لم ير من قومه الاستجابة التى توقعها وترجاها ، ومع هذا فيترجح لدى أنه لم يبلغ مرتبة اليأس والقنوط ، فلا زال ولا زلنا نأمل أن يأخذ قومنا بوسائل العمل والقوة والتطبيق .

انه مما يخدش هيبة الأمة العربية ، وينال من كرامة أبنائها ، ويسقطها

من أنظار أعدائها وأصدقائها أن نسمع عن اجتماعات كبرى لهيئات عربية كبرى ، بعضها حكومى ، وبعضها شبه حكومى ، ويقام لهده الاجتماعات الرسمية دعاوات واحتفالات ، ويصنع حولها عجيج وضجيج ويتظاهر أهلوها بالخطورة فى الموقف ، والجد فى الأمر ، والسرية فى الاجتماع ، والاستغراق فى الموضوع ، والتكفير عن الماضى ، والعزم على جلائل الأمور ، والحزم فى علاج القضايا العربية عامة وقضية فلسطين خاصة ، ويدور داخل تلك الاجتماعات مايدور من خلاف أو وفاق ، ومن جد أو هزل ، ومن تعصب أو تهرب ، ومن اقبال أو ادبار ، ومن انسجام أو اعصار ، وتنفض الاجتماعات ، وتخرج علينا الصحف بألوانها البراقة الحمراء والسوداء ، وعناوينها الضخمة الطويلة العريضة ، ومقدماتها الممتدة الممدودة ، وصورها الكبيرة والصغيرة ، ويقال « اجتماعات عربية خطيرة » ، « أخطر اجتماع لعلاج القضية العربية » ، « قرارات سرية وخطط سريعة واسعة » ، « لا مجال للتردد بعد اليوم » !! .. الى آخر هذه العنوانات الزاهية الجذابة ...

وننتظر انكشاف المستور وانبلاج الأمور ، فلا نفوز بطائل ، ونصل فى النهاية الى أن الأسرار الخطيرة معناها أنه لايوجد سر من الأسرار وجل مقسم الحظوظ ومقدر الأقدار !! ..

واذا كنتم ياقومنا تملكون أسرارا حقا ، أو تقررون جلائل صدقا ، فلماذا اذن الحديث الطويل العريض عن هذه الأسرار ؟ وهل فى شرعة العقلاء أن يسير صاحب السر بين الجموع ينادى : أيها الناس ، انعندى سرا خطيرا لن أكشفه لكم ؟! ...

لقد علمنا الاسلام كيف نسير وتتصرف فى هذا المجال ، فهذا محمد صلوات الله وسلامه عليه يقول : « استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان » فالعقلاء يطوون صدورهم على مافيها ، ولا ينشرون صحفهم الا بمأمن من العيون والرقباء ، وبمنأى من الأعداء والسفهاء ، فاذا تم

التدبير بعد عمق التفكير ، وبدأت خطوات التنهيذ والتطبيق ، جاء وقت المصارحة والاعلان ، ولهذا أمر الله رسوله أن يحدث الناس عن سبيله الواضحة الراشدة ، وعن سيره فيها على بصيرة هو ومن آمن به ، معتزين بالله وحده متبرئين من الشرك وأهله : « قل هذه سبيلى أدعو الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى وسبحان الله وما أنا من المشركين » .

طائفة من المقترحات

لا شك أن استقصاء الوسائل العملية العاجلة والآجلة لاسترداد فلسطين وصيانة ما فى أيدى العرب منها يحتاج الى بحث جماعى وتفكير متشعب ، ولكن هذا لايمنع من تقديم طائفة من المقترحات تكون محلا للبحث والنظر والاستكمال :

١ — ان اسرائيل محوطة من أغلب جهاتها ببلاد عربية ، وهى لاتجد لها نشاطا اقتصاديا الا فى هذه البلاد العربية ، فلو أحكمنا الحصار الاقتصادى على اسرائيل كليا وجزئيا ، فى اجماع واخلاص ، لقضينا على اسرائيل وهى فى مهدها الأثيم ، وهناك فرق واسع بين أن نقرر مقاطعة اسرائيل وضرب الحصار عليها ، وبين أن نطبق ذلك بعزم وايمان ويقين ...

٢ — تجب المسارعة بتدريب اللاجئين الفلسطينيين تدريبا عسكريا ، لأن هؤلاء هم أبناء فلسطين الشرعيون ، وهم الذين يحسون بوقع النكبة المباشر ، وهم الذين يطالبهم الوطن والتاريخ بأن يكونوا السابقين الى استرداد موطنهم فلسطين ، ويضاف الى ذلك أن كثيرا من هؤلاء اللاجئين لايجدون من مشاغل حياتهم الطارئة مايحول بينهم وبين تخصيص نصيب من وقتهم للتدريب العسكرى .

٣ — يتصل بالاقتراح السابق أنه يجب على كل دولة عربية أن تعمل لتكوين فرقة من أبناء فلسطين اللاجئين ومن المتطوعين المختارين ، لتمهر فنون الحراسة والدفاع والهجوم والقتال ، وترابط هذه الفرق

على حدود هذه الدول ، بينها وبين اسرائيل ، فيكون هناك على حدود مصر وسوريا ولبنان وشرقى الأردن والعراق فرق فلسطينية عربية مدربة ، بشرط أن يدقق المسئولون فى حسن الاختيار لأفراد هذه الفرق بحيث يكونون من الراغبين الصادقين فى التطوع لصيانة الاماكن المقدسة ولاسترداد فلسطين يوما من الأيام ...

٤ — العمل على اعادة أكبر عدد ممكن من اللاجئين الى القدس وما جاورها والى المملكة الأردنية ، حتى يكونوا على مقربة من مساقط رءوسهم ، وحتى لاتشغلهم الحياة الطارئة عن العزيمة المجددة دائما على العودة الى بلادهم الأصلية .

٥ — ويتصل بالاقتراح السابق أن تتخذ الوسائل السريعة لانشاء مؤسسات ثقافية واجتماعية واقتصادية فى القدس وما حولها ، وفى شرق الأردن لتكون مجالات حيوية لهؤلاء العائدين .

٦ — يجب أن تنظم دراسات عربية وقومية لأبناء المهاجرين وشبابهم ، سواء أكانوا هنا أم فى سائر البلاد العربية ، لأننا نخشى امحاء الروح العربى السليم من صدور هؤلاء بطول الأمد وتطاول الاهمال .

٧ — المطالبة بتدريس تاريخ فلسطين القديم والحديث بصورة واسعة مبسوطة فى المدارس والجامعات المختلفة بالبلاد العربية ، وفى طليعتها الأزهر الشريف بمصر .

٨ — يجب اتخاذ الخطوات الايجابية لانشاء جامعة اسلامية عربية فى القدس ، ومن العجيب أن هذه فكرة قديمة طالب بها وفد الشبان المسلمين فى مؤتمر القدس سنة ١٣٥٠ هـ ، وحتى الآن لم تتحقق هذه الفكرة ، فهل لأغنياء المسلمين والعرب أن يأخذوا فى تأسيسها اليوم ؟!

٩ — تجب توصية المعلمين والمربين والدعاة فى سائر المجتمعات العربية والاسلامية بالمثابرة على غرس روح الثأر لفلسطين فى نفوس الأطفال والتلاميذ والطلاب والبنات والأمهات ، فنحن يجب علينا أن نثأر للدين

والوطن والأعراض والكرامات والخيرات المضيعة والشهداء الذين زحموا أرض فلسطين ..

١٠ — يجب علينا أن نحسن اثارة الغضبة الدينية للقضية الفلسطينية فى صدور المسلمين والمسيحيين على السواء ، ففلسطين هى عند المسلمين بلد المسجد الأقصى ومسرى الرسول ومبدأ معراجه ، وهى عند المسيحيين مهد عيسى ومدرجه عليه السلام ، وفيها كنيسة القيامة .

ويجب أن نذكر أن الصهيونية رغم مظاهرها الدينية تهدف الى الاستبداد بالاقتصاد العالمى ، لأن رقعة الشرق الاسلامى أهم ركن فى الدنيا من هذه الناحية ، اذ هو مركز الدائرة العالمية ، وهو القنطرة بين الشرق والغرب ، والصهيونية تريد السيطرة عليه لتتحكم فى الاقتصاد وتسود فى سوق المال ، وستكون الضحايا فى ذلك الاستعباد الاقتصادى من المسلمين والمسيحيين على السواء .

نعم لقد أقامت الصهيونية دولة اختارت لها اسم نبى من الأنبياء هو «اسرائيل» ، ورددت أحلامها بشأن ملك سليمان وهو نبى من الأنبياء كذلك ، ولكن من وراء ذلك التظاهر الدينى يكمن الجشع والشهوة وعبادة الذهب !! ...

١١ — وهنا يجب علينا أن نتنبه للعناية بعلاج فتنة طارئة علينا ، هى اصطناع الخلاف بين القومية العربية والفكرة الاسلامية ، فلنحاربه حتى لا تستأثر هذه الفتنة بنشاطنا ، وتلفتنا عن واجبنا ...

ولنتذكر أن تأريث نيران هذه الفتنة من صنع الأيدى المستعبدة الدخيلة التى تريد أن تضرب القومية العربية بالفكرة الاسلامية ، ثم تضرب الفكرة الاسلامية بالقومية العربية ، فتساعد هذه حتى تكاد تسود ، ثم تناوئها وتناصر الأخرى حتى تتغلب وتكاد تسود ، فتساعد الأولى ، وهكذا دواليك ...

مسألة فلسطين قضية قومية عربية ، وقضية دينية : اسلامية ومسيحية

اذ لها صفة القداسة والطهارة عند المسلمين والمسيحيين .

١٢ — قد يكون من الخير عكوف صفوة من أهل الفكر والرأى والبيان على وضع كتاب عن الوضع الحاضر لقضية فلسطين عامة وقضية القدس خاصة ، وما يجب أن يكون ، وما يمكن للأفراد والجماعات والحكومات أن يعملوه اليوم وغدا ، ويلزم أن يكون ذلك الكتاب حيا قويا مدعما بالحجج والأسانيد ، جاذبا للعقول والعزائم .

متى يتكرر الفتح ؟

أيها الاخوان الفضلاء ...

انه لاييأس من روح الله الا القوم الكافرون ... ان مع العسر يسرا ان مع العسر يسرا ... ان رحمة الله قريب من المحسنين ... وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض ، كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكن لهم دينهم الذى ارتضى لهم، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا ، يعبدوننى لا يشركون بى شيئا ، ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون ...

أيها الاخوة الفضلاء ... نحن فى مواقف عصيبة بلا ريب ، وقد تداعت علينا الأمم كما تتداعى الأكلة على قصعتها ، ولكن ليس ببعيد أن يعيد التاريخ نفسه ، وليس على الله بعزيز أن يغير مابنا اذا غيرنا ما بأنفسنا ، وليس على الله بمستنكر أن يجعلنا أهلا لخلافة أجدادنا فى الأرض بالعزة والقوة والمعدلة ، فقد سبق منذ أكثر من ثمانمائة سنة أن جاءت جموع الصليبيين من أبناء الغرب الغشوم الظالم للشرق منذ أجيال وأجيال ... جاءت هذه الجموع واحتلت فلسطين ، واحتلت القدس ، وفعلت الأفاعيل وتفننت فى ارتكاب المناكر والأباطيل، وتكاثفت الظلمات واستحكمت الأزمات ، ولكن الله أرسل صلاح الدين ، فاسترد فلسطين ، ودحر الصليبيين الباغين ، الذين جاءوا من غربهم لينشروا الفساد والضلال فى الدين والدنيا معا ، وتم له الاسترداد عام ثلاث

وثمانين وخمسمائة ، وفى اليوم الرابع من شعبان من هذه السنة كانت أول جمعة بعد الفتح ، وصلاح الدين فى بيت المقدس ، وتنافس الخطباء على خطبة الجمعة ، كل قد استعد ليكون صاحب الشرف الأسنى بالقائها وأذن السلطان قبيل الخطبة بقليل للقاضى محيى الدين محمد بن زكى الدين على القرشى فى أن يخطب ، فصعد محيى الدين منبر المسجد ، وصلاح الدين بين ألوف المصلين ، وخطب خطبة وعتها كتب التاريخ، وصارت اليوم لدينا نسيا منسيا ، ولكن تذكرها والامعان فيها ممايبعث الأمل والرجاء ، فقد صب فيها القاضى روح المسلم المستبشر بفضل الله الذاكر لنعمة الله ، الواثق بنصر الله ، الصابر على ابتلاء الله .

ولن يكثر على سمع المسلم أو بصره أن يلقى الى هذه الخطبة قلبه وانتباهه ، فانها عبرة من التاريخ أولا ، ونمط يحتذى ثانيا ، وبشرى خير ثالثا ، والله المسئول أن يكتب للمسلمين اليوم ماكتب لأسلافهم من قبل ، فنرى جنبات المسجد الأقصى عما قريب تردد كلمات من وحى الاسلام كتلك التى أفاضها الله على لسان القاضى محيى الدين ، فقد وقف وألقى يومئذ الخطبة التالية :

« بسم الله الرحمن الرحيم . الحمد لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين ، اياك نعبد واياك نستعين ، اهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم ، غير المغضوب عليهم ولا الضالين ... فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين ...

الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور، ثم الذين كفروا بربهم يعدلون ، هو الذى خلقكم من طين ، ثم قضى أجلا ، وأجل مسمى عنده ثم أنتم تمترون ، وهو الله فى السموات وفى الأرض ، يعلم سركم وجهركم ويعلم ماتكسبون ...

وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك فى الملك ، ولم يكن له ولى من الذل وكبره تكبيرا ... الحمد لله الذى أنزل على عبده

الكتاب ولم يجعل له عوجا ، قيما لينذر بأسا شديدا من لدنه ، ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا حسنا ، ماكثين فيه أبدا ، وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا ، مالهم به من علم ولا لآبائهم كبرت كلمة تخرج من أفواههم ان يقولون الا كذبا ، فلعلك باخع نفسك على آثارهم ان لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا ...

وقل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى ، آلله خير أما يشركون؟ الحمد لله الذى له مافى السموات وما فى الأرض ، وله الحمد فى الآخرة ، وهو الحكيم الخبير ...

الحمد لله فاطر السموات والأرض ، جاعل الملائكة رسلا أولى أجنحة مثنى وثلاث ورباع ، يزيد فى الخلق ما يشاء ، ان الله على كل شىء قدير ، ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها ، وما يمسك فلا مرسل له من بعده ، وهو العزيز الحكيم ...

الحمد لله معز الاسلام بنصره ، ومذل الشرك بقهره ، ومصرف الأمور بأمره ، ومديم النعم بشكره ، ومستدرج الكفار بمكره ، الذى قدر الأيام دولا بعدله ، وجعل العاقبة للمتقين بفضله ، وأفاء على عباده من ظله ، وأظهر دينه على الدين كله ... القاهر فوق عباده فلا يمانع ، والظاهر على خليقته فلا ينازع ، والآمر بما يشاء فلا يراجع والحاكم بما يريد فلا يدافع ...

أحمده على اظفاره واظهاره ، واعزازه لأوليائه ونصره لأنصاره ، وتطهير بيته المقدس من أدناس الشرك وأوضاره ؛ حمد من استشعر الحمد باطن سره وظاهر جهاره ؛ وأشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له ، الأحد الصمد ، الذى لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد ، شهادة من طهر بالتوحيد قلبه ، وأرضى به ربه ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، رافع الشك ، وداحض الشرك ، ورافض الافك ، الذى أسرى به ليلا من المسجد الحرام الى هذا المسجد الأقصى ، وعرج به منه الى

السموات العلى ، الى سدرة المنتهى ، عندها جنة المأوى ، اذ يغشى السدرة ما يغشى ، مازاغ البصر وما طغى ...

صلى الله عليه وسلم ، وعلى خليفته أبى بكر الصديق السابق الى الايمان ، وعلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أول من رفع عن هذا البيت شعار الصلبان ، وعلى أمير المؤمنين عثمان بن عفان ذى النورين جامع القرآن ، وعلى أمير المؤمنين على بن أبى طالب مزلزل الشرك ومكسر الأوثان ، وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم باحسان .

أيها الناس ، أبشروا برضوان الله الذى هو الغاية القصوى ، والدرجة العليا ، لما يسره الله على أيديكم من استرداد هذه الضالة من الأمة الضالة وردها الى مقرها من الاسلام ، بعد ابتذالها فى أيدى المشركين قريبا من مائة عام ، وتطهير هذا البيت الذى أذن الله أن يرفع ويذكر فيه اسمه ، واماطة الشرك عن طرقه بعد أن امتد عليها رواقه واستقر فيها رسمه ، ورفع قواعده بالتوحيد فانه بنى عليه ، وشيد بنيانه بالتمجيد فانه أسس على التقوى من خلفه ومن بين يديه ، فهو موطن أبيكم ابراهيم ومعراج نبيكم عليه الصلاة والسلام ، وقبلتكم التى كنتم تصلون اليها فى ابتداء الاسلام وهو مقر الأنبياء ومقعد الأولياء ، ومقصد الرسل ومهبط الوحى ، ومنزل ينزل به الأمر والنهى ، وهو أرض المحشر وصعيد المنشر ، وهو الأرض المقدسة التى ذكرها الله فى كتابه المبين ، وهو المسجد الأقصى الذى صلى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم بالملائكة المقربين ، وهو البلد الذى بعث الله اليه عبده ورسوله وكلمته التى ألقاها الى مريم وروحه ، عيسى الذى أكرمه برسالته ، وشرفه بنبوته ، ولم يزحزحه عن رتبة عبوديته ، فقال تعالى : «لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون» . كذب العادلون بالله وضلوا ضلالا بعيدا ما اتخذ الله من ولد ، وما كان معه من اله ، اذن لذهب كل اله

بما خلق ولعلا بعضهم على بعض ، سبحان الله عما يصفون ، عالم الغيب والشهادة ، فتعالى عما يشركون .

لقد كفر الذين قالوا ان الله هو المسيح بن مريم ، قل فمن يملك من الله شيئا ان اراد أن يهلك المسيح بن مريم وأمه ومن فى الأرض جميعا، ولله ملك السموات والأرض وما بينهما ، يخلق مايشاء ، والله على كل شيء قدير ؛ وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه ، قل فلم يعذبكم بذنوبكم ، بل أنتم بشر ممن خلق ، يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ، ولله ملك السموات والأرض وما بينهما واليه المصير .. ياأهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل أن تقولوا ماجاءنا من بشير ولا نذير ، فقد جاءكم بشير ونذير ، والله على كل شيء قدير .

وهو أولى القبلتين،وثانى المسجدين ، وثالث الحرمين ، لاتشد الرحال بعد المسجدين الا اليه ، ولا تعقد الخناصر بعد الموضعين الا عليه .

فلولا أنكم ممن اختاره الله من عباده ، واصطفاه من سكان بلاده ، لما خصكم بهذه الفضيلة التى لا يجاريكم فيها مجار ، ولا يباريكم فى شرفها مبار ، فطوبى لكم من جيش ظهرت على أيديكم المعجزات النبوية والوقعات البدرية،والعزمات الصديقية ، والفتوحات العمرية ،والجيوش العثمانية ، والفتكات العلوية ، جددتم للاسلام أيام القادسية ، والملاحم اليرموكية ، والمنازلات الخيبرية ، والهجمات الخالدية ، فجزاكم الله عن نبيه محمد صلى الله عليه وسلم أفضل الجزاء ، وشكر لكم ما بذلتموه من مهجكم فى مقارعة الأعداء ، وتقبل منكم ماتقربتم به اليه من اهراق الدماء ، وأثابكم الجنة فهى دار السعداء .

فأقدروا رحمكم الله هذه النعمة حق قدرها ، وقوموا لله قانتين بواجب شكرها ، فله تعالى المنة عليكم بتخصيصكم بهذه النعمة ، وترشيحكم لهذه الخدمة ، فهذا هو الفتح الذى فتحت له أبواب السماء،

وتبلجت بأنوار وجوده الظلماء ، وابتهج به الملائكة المقربون ، وقر به عينا الأنبياء والمرسلون ...

فماذا عليكم من النعمة أن جعلكم الجيش الذى يفتح على يديه البيت المقدس فى آخر الزمان ، والجند الذى تقوم بسيوفه بعد فترة من النبوة أعلام الايمان ؛ فيوشك أن يفتح الله على أيديكم أمثاله ، وأن تكون التهانى لأهل الخضراء ، أكثر من التهانى لأهل الغبراء .

أليس هو البيت الذى ذكره الله فى كتابه ، ونص عليه فى محكم خطابه ، فقال تعالى : «سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا انه هو السميع البصير » ؟... أليس هو البيت الذى عظمته الملل وأثنت عليه الرسل، وتليت فيه الكتب الأربعة المنزلة من الله عز وجل ؟ ...

أليس هو البيت الذى أمسك الله تعالى لأجله الشمس على يوشع أن تغرب ، وباعد بين خطواتها ليتيسر فتحه ويقرب ؟ ... أليس هو البيت الذى أمر الله عز وجل موسى أن يأمر قومه باستنقاذه فلم يجبه الا رجلان ، وغضب الله عليهم لأجله فألقاهم فى التية عقوبة للعصيان ؟..

فاحمدوا الله الذى أمضى عزائمكم لما نكلت عنه بنو اسرائيل وقد فضلت على العالمين ، ووفقكم لما خذلت فيه أمم كانت قبلكم من الأمم الماضين وجمع لأجله كلمتكم وكانت شتى ، وأغناكم بما أمضته «كان وقد» عن «سوف وحتى» ...

فليهنكم أن الله قد ذكركم به فيمن عنده ، وجعلكم بعد أن كنتم جنودا لأهويتكم جنده ، وشكر لكم الملائكة المنزلون على ماأهديتم لهذا البيت من طيب التوحيد ، ونشر التقديس والتمجيد ، وما أمطتم عن طرقهم فيه من أذى الشرك والتثليث ، والاعتقاد الفاجر الخبيث ، فالآن تستغفر لكم أملاك السموات ، وتصلى عليكم الصلوات المباركات

فاحفظوا رحمكم الله هذه الموهبة فيكم ، واحرسوا هذه النعمة عندكم

بتقوى الله التى من تمسك بها سلم ، ومن اعتصم بعروتها نجا وعصم ، واحذروا من اتباع الهوى ، ومواقعة الردى ، ورجوع القهقرى ، والنكول عن العـدى ، وخذوا فى انتهاز الفرصـة ، وازالة ما بقى من الغصة وجاهـدوا فى الله حق جهاده ، وبيعوا عباد الله أنفسكم فى رضاه اذ جعلكم خير عباده ، واياكم أن يستزلكم الشيطان ، وأن يتـداخلكم الطغيان ، فيخيل لكم أن هذا النصر بسيوفكم الحداد ، وخيولكم الجياد وبجلادكم فى مواطن الجلاد ، لا والله ، ما النصر الا من عند الله العزيز الحكيم ...

فاحذروا عباد الله بعد أن شرفكم الله بهـذا الفتح الجليل ، والمنح الجزيل ، وخصكم بنصره المبين ، وأعلق أيديكم بحبله المتين ، أن تقترفوا كبيرا من مناهيه ، وأن تأتوا عظيما من معاصيه ، فتكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا ، وكالذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين .

والجهاد الجهاد ، فهو من أفضـل عباداتكم ، وأشرف عاداتكم ، انصروا الله ينصركم ، احفظـوا الله يحفظكم ، اذكروا الله يذكركم ، اشكروا الله يزدكم ويشكركم ... خذوا فى حسم الداء ، وقطع شأفة الأعداء ، وطهروا بقية الأرض من هـذه الأنجاس التى أغضبت الله ورسوله ، واقطعوا فروع الكفر واجتثوا أصوله ، فقد نادت الأيام بالثارات الاسلامية والملة المحمدية ...

الله أكبر ، فتح الله ونصر ، غلب الله وقهر ، أذل الله من كفر !! ...

واعلموا رحمكم الله أن هذه فرصة فانتهزوها ، وفريسة فناجزوها ، وغنيمة فحوزوها ، ومهمة فأخرجوا لها هممكم وأبرزوها ، وسيروا اليها سرايا عزماتكم وجهزوها ، فالأمور بأواخرها ، والمكاسب بذخائرها ، فقد أظفركم الله بهذا العدو المخذول وهم مثلكم أو يزيدون ، فكيف وقد أضحى قبالة الواحد منهم منكم عشرون ، فقد قال تعالى : « ان

يكن منكم عشرون صـابرون يغلبون مائتين ، وان يكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا بأنهم قوم لايفقهون ، الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا ، فان يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين ، وان يكن منكم ألف يغلبوا ألفين باذن الله والله مع الصابرين » .

أعاننا الله واياكم على أتباع أمره ، والازدجار بزواجره ، وأيدنا معاشر المسلمين بنصر من عنده ، ان ينصركم الله فلا غالب لكم ، وان يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده ؟ ...

ان أشرف مقال يقال فى مقام ، وأنفذ سهام تمرق عن قسى الكلام ، وأمضى قول تحلى به الأفهام ، كلام الواحد الفرد العزيز العلام ... قال الله تعـالى : « واذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصـتوا لعلكم ترحمون » . أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، بسم الله الرحمن الرحيم ، سبح لله مافى السموات وما فى الأرض وهو العزيز الحكيم ، هو الذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ، ماظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله ، فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا ، وقذف فى قلوبهم الرعب ، يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين ، فاعتبروا يا أولى الأبصار ..

آمركم واياى عباد الله بما أمر الله به ، من حسن الطاعة فأطيعوه ، وأنهاكم واياى عما نهى الله عنه من قبح المعصية فلا تعصوه .

أقول قولى هذا واستغفر الله لى ولكم ولسائر المسلمين ، فاستغفروه .

***

هذه خطبة القاضى محيى الدين القرشى يوم الفتح ، وهى جديرة بأن يحفظها كل مسلم ، وأن تدرس لناشئة المسلمين ، وان لنا فى الله رجاء واسعا ، أن يعيـد يوم الفتح على المسلمين ، وأن يرد عليهم الشهيدة فلسطين ، وأن يعزهم فى الأرض بكلمة الايمان واليقين .

استنهاض

أيها الاخوة الفضلاء ...

ان أركان المسجد الأقصى المبارك تطل عليكم الآن ، انها تطل عليكم هازئة ساخرة من طول الكلام وكثرة الوعود ونقض المواثيق فى الماضى، وهى فى الوقت نفســه تطل عليكم معبرة عن أساها ولظاها ، مذكره بحقها ومرتجاها ، مطالبة بلون جديد من العمل والجهاد ، وعهد جديد من التطبيق تتحقق به الآمال ؛ وكأن كل حجر من أحجار القبه يتهيأ للانطلاق من مكانه ، ليصيب رأسا من الرءوس المتناثرة المتكاثرة التى لاتقدم ضريبة الدين والوطن ، علما وعملا ، وتفكيراوتدبيرا ، فاحذروا غضب الله ايها الاخوة وارجوا رحمته ، ان رحمة الله قريب من المحسنين.

***

كأنى بصلاح الدين يطل علينا من نافذة التاريخ ، فيرينا نفسه وهو بين جموع المصلين فى المسجد الأقصى يوم الجمعة ٤ شعبان سنة ٥٨٣ هـ وقد أتم الله عليه فتح بيت المقدس وطرد الصليبيين منها ، ليقول لكم . ماكان صلاح الدين نبيا ولا ملكا من الملائكة ، ولكنه كان مسلما يؤمن بالله ورسوله ، ويجاهد لتكون كلمة الاسلام والمسلمين هى العليا .

وفيكم من يستطيع أن يكون كصلاح الدين لو أخلص لله وللمسلمين .

***

ولقد ارتفع صوت رئيس الشبان المسلمين هنا فى مؤتمر ٢٧ رجب سنة ١٣٥٠ هـ يقول :

« اننا اجتمعنا فى هذا المؤتمر لنحقق أغراضا شريفة ، يراقبنا عليها ملايين المسلمين فى جميع الأقطار ، وان أربعة عشر قرنا مضت على الاسلام ، بما فيها من أيام سعد وأيام نحس ، تطل علينا الآن بعظمائها

وأبطالها ، وعلمائها وأعلامها ، وضحاياها وبؤسائها ، تنظر ما نحن فاعلون .

ان الواحد منا لا يعيش عمرين ، بل عمرا واحدا ، وان هذه فرصة سانحة أمامنا لنكون من أهل الخلود ، فلنعمل كما يعمل أهل الخلود » ! .

***

وحسبى أن أكرر بينكم هذا النداء ، سائلا أقوى الأقوياء ، أن يحقق لنا الرجاء ، وأن يستجيب منا الدعاء ، انه أكرم مسئول وأفضل مأمول .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

أحمد الشرباصى

من علماء الأزهر الشريف

والرائد الدينى لجمعيات الشبان المسلمين

ربيع الأول سنة ١٣٧٣ هـ

مطابع دار الكتاب العربى بالقاهرة